



حركة العلوم والكتب المتداولة في المغرب الأوسط من خلال كتاب: "الدَّرَر المَكْنُونَة في نوازل مازونة"

د. الزين محمد

جامعة سيدي بلعباس

ملخص

تهدف هذه الورقة البحثية إلى إبراز جوانب من حركة العلوم والكتب التي تداولها مشايخ العلم وطلبته في أغلب حواضر المغرب الأوسط على العهد الزياني من خلال كتاب "الدَّرَر المَكْنُونَة في نوازل مازونة" للإمام أبي زكريا يحيى بن موسى المازوني التلمساني (ت 883هـ/1478م)، حيث ازدهرت الحركة العلمية بتشجيع من سلاطين بني زيان للعلم والعلماء؛ وبرزت مدينة تلمسان كحاضرة ومركزاً للإشعاع العلمي، إلى جانب مُدُن أخرى مثل: وهران، ومازونة، والجزائر، وبجاية. ورغم تطور حركة العلوم وتداول الكتب، فقد خلص البحث إلى رصد طغيان واضح وتبعية معرفية للمشرق وغياب لمؤلفات علماء المغرب الأوسط تكون قادرة على صنع نسق معرفي وقاعدة تركز عليها معرفياً.

الكلمات الدالة: المغرب الأوسط؛ الدرر المكنونة في نوازل مازونة؛ حركة العلوم؛ الكتب

المتداولة.

Abstract

The Science Movement in the Central Maghreb based on Al-Durar Al-Maknouna Fi Nawazil Mazouna: Hidden Pearls among the Mazouna Researchs (a casebook about Mazouna in Algeria).

The purpose of this research is to highlight aspects of the science and book movement that scholars and their Students consulted in most metropolises during the Zianid era, based on the book "Hidden Pearls Among the Researchs of Mazouna "of Imam Abi Zakaria Yahia Ben Moussa El Mazouni Ettelemçani (883 Hidjir-1478), where scientific movements developed by the encouragement of science and scholars by Sultans of Beni Zayyan, this gave birth to the city of Tlemcen as a civilization and center of scientific outreach, as well as other cities such as Oran, Mazouna, Algiers and Bejaia. Despite the development of the science and books movement, the present research has demonstrated the dominance and dependence of Eastern knowledge and the absence

of works written by scholars of the central Maghreb, which could be both a system and a cognitive base.

Key words: Central Maghreb, hidden pearls among the Mazouna Researchs, science movement, books consulted.

مقدمة:

لا يخفى على الباحث في تاريخ الغرب الإسلامي مقدار الأهمية التي تحظى بها كتب الفقه والنوازل؛ باعتبارها مصادر دفيئة تسلط الضوء على المواضيع ذات العلاقة بتاريخ الذهنيات، خاصة بعد بروز مدرسة التاريخ الجديد، وفي هذا الإطار لا غنى للباحث في تاريخ الغرب الإسلامي عن هذه المصادر، وقد ألف علماء الغرب الإسلامي العديد من كتب النوازل على غرار نوازل ابن رشد الجدد، ونوازل ابن الحاج التجيبي، ومن بين أهم المؤلفات التي صنفها علماء المغرب الأوسط في هذا المجال، نذكر كتاب "الدرر المكنونة في نوازل مازونة" لأبي زكريا يحيى بن موسى المغيلي المازوني (883-1478م)، الذي ضمت موسوعته معلومات هامة عن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط خلال العهد الزياني، وسنسلط الضوء في هذا البحث على الجانب الثقافي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، والموسوم بـ: "حركة العلوم والكتب المتداولة في المغرب الأوسط من خلال كتاب: الدرر المكنونة في نوازل مازونة".

وانطلاقا مما سبق، يمكن صياغة التساؤل الرئيس الآتي: ما هي أبرز مظاهر الأحوال الثقافية التي يقدمها لنا كتاب الدرر المكنونة عن حركة العلوم والكتب المتداولة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني؟ ولمعالجة مختلف جوانب الموضوع، والإجابة عن الإشكالية، فقد ارتأينا أن يكون ذلك وفق الآتي:

أ- أهم العلوم الدينية:

1- علم التفسير:

هو علم يبحث في معاني القرآن الكريم²، بحسب قواعد اللغة العربية؛ أي أن هذا التفسير يحتاج إلى مجموعة من العلوم للتحكم فيه، ومن بينها اللغة العربية وأصول الفقه والجدل وغيرها من العلوم³. وموضوع التفسير هو آيات القرآن الكريم لئتم الاستعانة بها في التشريع والعبادات⁴.

وقد أولى علماء المغرب الأوسط اهتماما خاصا بهذا العلم، وتجلى ذلك في حضوره الدائم في برامج التدريس، ولنا مجموعة من النوازل التي تبين الانكباب على علم التفسير، ومن ذلك نازلة سئل فيها عن تفسير الآية الرابعة من سورة المائدة⁵، وأخرى سئل فيها عن تفسير آية من سورة الجن⁶. وكان التفسير يخصص له درس، فقد كان أبو الفضل بن الإمام يدرسه لطلبته مثلما جاء في نازلة فسّر فيها آية من سورة القلم⁷، وكان محمد بن النجار يفسر القرآن لطلبته، والذي كان القلصادي واحدا من حضر دروسه⁸.

وكان تفسير القرآن يتم في معظم الحالات في إطار تفسير الآيات الخاصة بالعبادات، وكان حضور التفسير قويا في الإجابة عن النازلة، فكثيرا ما يسترسل المفتي في تفسير آيات في إجابته عن نازلة ما.

وقد أنتج علماء المغرب الأوسط عدّة تفاسير، لعل أشهرها تفسير عبد الرحمن الثعالبي المعنون بالجواهر الحسان في تفسير القرآن، وهو مختصر لتفسير ابن عطية، حيث يقول في مقدّمة كتابه: "فإني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضمنته بحمد الله المهمّ ما اشتمل عليه تفسير ابن عطية"⁹. كما ألّف أبو الفضل بن الإمام "أبحاث في التفسير"¹⁰.

2- علم الحديث:

وهو العلم الذي يتمكن من خلاله معرفة أقوال النبي صلى الله عليه وسلم¹¹، أو هو ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة¹²، وينقسم إلى قسمين:

- أولهما: العلم برواية الحديث: وهو العلم الذي يبحث في كيفية اتصال السند بالرسول صلى الله عليه وسلم، وتكمن أهمية هذا العلم في كونه يمحّص الحديث، فلا يقبل إلا السند الكامل الشروط، ولا يتأتّى ذلك إلا بمعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط"¹³

- وثانيهما: العلم بدراية الحديث: وهو العلم الذي يبحث في معنى الحديث من ناحية المضمون، ويشترط للخوض في هذا العلم إتقان مجموعة من العلوم المساعدة كاللغة العربية والفقه وأصوله¹⁴.

ومن بين الإشكالات المنتشرة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني حول هذا العلم، هو اختلاف معانيه من مفسر لآخر، هذا ما جعل الطلبة والفقهاء في المغرب الأوسط يرسلون أحد علماء المغرب الأدنى وهو عمر القلشاني للاستفسار عن حديث¹⁵.

وكان فقهاء المغرب الأوسط يستشهدون به في الإجابة على النوازل، مثلما جاء في نازلة سئل فيها أبو عبد الله بن مرزوق عن قول ابن القاضي، فاستشهد بحديث "لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ"¹⁶. ويبدو أن علماء المغرب الأوسط كانوا على قدر كبير في دراية الحديث لدرجة إيراد كل الكتب الحديث التي ذكرت حديثا معيناً¹⁷، بل حتى في علم الرجال وصحة أحاديثهم من ضعفها "فهؤلاء كما ترون كل مشهور بالفضل والعدالة"¹⁸.

وكان يقع في الحديث الواحد عدة اختلافات بين الفقهاء لمجرد حرف واحد أو قاعدة لغوية، فكان كل فقيه يفسرها من منظوره الخاص، حيث ورد في إحدى الأجوبة "ومن هذا اتفق للطبي في شرحه للحديث الذي أخرجه البخاري: "من قذف مملوكه وهو بريء مما قال جلد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال من قذف مملوكه بريئاً أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يقول كما قال"¹⁹، غير أن المستفتي كان يقع في حيرة كبيرة نتيجة عدم الاتفاق حول الحديث الواحد فيجيب الفقيه "إلا أن دمائكم وأموالكم وأعراضكم أو في بعض الروايات أحسبه قال: "وأعراضكم عليكم

حرام" ²⁰. فالمستفتي الذي لا علم له كيف سيتعامل مع هذا الجواب الاختياري؟ هل هي أزمة خطاب عانى منها المغرب الأوسط تجلت مظاهرها في هذه الضبابية؟

3- الفقه: ويعني لغة: العلم بالشيء والفهم له والفتنة ²¹. وأما في الاصطلاح، فهو العلم بالأحكام الشرعية المستنبطة من أدلتها التفصيلية ²²، وهو من العلوم الدينية التي شهدت رواجاً كبيراً في المغرب الأوسط، وكانت معظم القضايا الفقهية المتداولة آنذاك، تتعلق بمسائل يومية تخص حياة المسلم، كالطهارة والصلاة وغيرها. لذا كثرت الاستفسارات في شتى المسائل الشرعية، وكان الفقيه يتصدى لكل هذه المسائل بالإجابة ما يبين أن الفقه كان يراعي الطابع المجتمعي آنذاك في صوره وتمثلاته، في همومه وتطلعاته، وعليه فلا ضير إذا قلنا أن مستوى التنظير الفقهي في المغرب الأوسط وبالأخص خلال الفترة الزيرية قد وصل إلى أعلى مستوياته، فمن دون شك أن هذا الكم الهائل من النوازل في مختلف الأبواب الفقهية يوحى لنا بذلك الإعداد العلمي القوي للفقيه من جهة، ومن جهة أخرى يعطينا صورة صادقة عن المدرسة المغربية الفقهية التي تحررت نوعاً من التبعية المشرقية في بعض الفتاوى وليس في القاعدة العلمية، فنجد نازلة مطولة لأبي عبد الله بن مرزوق حول حكم الكاغد الرومي، وبإلقاء نظرة على هذه النازلة، يتضح لنا العديد من المقاربات التي طبعت العقل الفقهي المغرب أوسطي الذي كما قلنا سابقاً أنه تحرر نوعاً ما من التبعية المشرقية فرغم أنه كما جاء في النازلة من أن "أهل المشرق شاع عند علمائهم أنه لا ينسخ فيه" ²³ إلا أن ابن مرزوق خالفهم واجتهد في المسألة موظفاً عدة استدلالات بجواز النسخ على كاغد الروم.

لقد كان الفقه حاضرا أيضا في السوق، ففصل في النزاع بين البائع والمشتري²⁴ وأجاب عن مشاكل الملكية العقارية والشراكات حيث وردت نوازل عديدة بثت الحكم في منازعات حول كراء الأراضي²⁵ ونقل الملكية من شخص لآخر²⁶. إنَّ المتتبع لحركة الخطاب الفقهي في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، يلاحظ حضوره ووقوفه القوي في وجه بني هلال، فهذا رجل من العرب عرفت جماعته بالبغي²⁶، بل إنَّ بعض النوازل دلت على أنَّ الخطاب الفقهي تمكن من الحد من تهور هذه القبائل، فقد سئل أبو الفضل العقباني عن "رجل من شيوخ العرب تاب لله ونزل على رجل من يدعي الفقه ليتعلم العلم"²⁷، بينما نلاحظ حضوره محتشما في الجانب السياسي، إذ لم نحص إلا نازلة واحدة حول ذكر الخطيب في الجمعة للصحابة والسلطان²⁸ ما يجعلنا نبدي قلقا حول دور السلطان في الحد من حرية الفقيه من إبداء رأيه، فهل كان كذلك؟ هل مارس السلطان قوته على الفقيه فتتج عن ذلك توجه الخطاب الفقهي بصفة شاملة إلى المجتمع تاركا البلاط يفعل ما يحلو له؟ لا نملك إزاء هذه الاشكاليات إلاَّ الأخذ بما وجدناه في الدرر المكنونة فنازلة واحدة في الجانب السياسي مقابل المئات منها في الجانب الاجتماعي ترجح أن السلطان حد من حرية الفقيه.

4- علوم اللغة: هي علم يبحث عن معاني اللغة وهيئاتها التركيبية²⁹، ويدرس هذا العلم جوانب اللغة المتعلقة بالأصوات والصرف والنحو والمعنى³⁰.

لقد كان لعلم اللغة حضور قوي في الحركة العلمية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، خاصة وأن معظم النوازل تحتاج إلى تدقيق لغوي في صيغة السؤال، فقد يحول حرف واحد المعنى بأكمله، لهذا فإننا لم نجد نازلة إلا وفيها استقصاء لغوي ينم عن دراية كبيرة لعلماء المغرب الأوسط بهذا العلم، فنجد مثلاً المعنى اللغوي لمصطلح الغسالة، وهو مصطلح فقهي، حيث جاء في تفسيره اللغوي "والغسالة فهي فعالة وهذه الصيغة تستعمل فيما يطرح كالنخالة والسحالة"³¹.

وإذا سمحنا لأنفسنا تفسير هذا التعمق في التفكيك اللغوي للنازلة، فإننا نرجعه إلى أن هذه النوازل في معظمها افتراضية؛ أي وردت من فقيه أو طالب يسأل عن معنى معين، مثل النازلة التي سأل فيها المازوني شيخه أحمد بن زاغ عن قول ابن الحاجب "ويلحق به المتغير بما لا ينفك عنه غالباً"³¹، حيث كان تفسيره مبني على علم اللغة "فأجابني بما نصّه: "الحمد لله أمّا قول ابن الحاجب: المتغير بما لا ينفك عنه غالباً فضمير ينفك عائد على الماء وضمير عنه يعود إلى ما الموصولة"³². وكان الفقيه أو المفتي لا يكتفي بالتفسير اللغوي للحديث أو الآية فقط بل يفسر حتى سؤال المستفتي ويفككه ليتمكن من فهم النازلة حيث جاء في نازلة "والإشارة في قولكم: لأن ذلك إنما تعود على الحكمي وفاعل يمنع الأول ضميره"³³

5- علم الأدب: هو فن يهتم بالإجادة في الكتابة، سواء كان ذلك نظماً كالشعر أو نثراً كالرسائل³⁴ وتجلّى هذا العلم في القدرة الأدبية للعلماء في نظم أجوبتهم

في شكل أبيات شعرية، من ذلك إجابة الفقيه زيان الزواوي عن نازلة " فريضة قراءة الفاتحة وسنة السر والجهر³⁵ فكان جوابه:

تَحْصِيلُ مَا هِيَ الْقِرَاءَةُ دُونَهَا تَعْيِينُ قَيْدٍ يَفْتَنِي وَيُصَاحِبُ
لَوْ جُوبَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَجُوبُهُ لَا يَمْتَرِي فِيهِ اللَّيْبُ النَّاجِبُ
وَحُصُوصُهُ بِالسِّرِّ أَوْ بِالْجَهْرِ فِي بَعْضِ الْمَوَاضِعِ سُنَّةٌ لَا وَاجِبُ³⁶.

ب) الكتب المتداولة:

استعان فقهاء المغرب الأوسط وعلماءه، سواء في إجاباتهم عن النوازل التي ترد إليهم، أو في مدارسهم ومساجدهم على مجموعة من المؤلفات ذات الصلة بالمذهب المالكي، وعليه فقد قمنا بدراسة إحصائية لهذه المؤلفات من خلال كتاب الدرر، فوجدنا الكثير من الكتب المعتمدة بصفة كبيرة وأيضا التي اعتمدت بصفة أقل، فأما الكتب التي كانت متداولة بكثرة، فنذكر منها:

- **مدونة الإمام مالك:** وهي عبارة عن أسئلة وأجوبة في الفقه المالكي رواها الإمام محمد بن سحنون التنوخي عن الإمام عبد الرحمن القاسم عن الإمام مالك، وهذا الكتاب مقسم بحسب أبواب الفقه: كتاب الوضوء - الصلاة - الجنائز - الصيام والاعتكاف و ليلة القدر - الزكاة - الحج - الجهاد - الصيد - الذبائح - الضحايا - النذور - النكاح - إرخاء الستور - التخيير والتمليك - الرضاع - العدة و طلاق السنة - الأيمان بالطلاق و طلاق المريض - الظهار - الإيلاء واللعان - الاستبراء - العتق - المكاتب - التدبير - أمهات الأولاد - الولاء والمواريث - الصرف - السلم - الآجال - البيوع الفاسدة - الوكالات - العرايا - التجارة بأرض العدو - التدليس - الصلح - تضمين الصناعات - الجعل والإجارة - كراء الرواحل والدواب - كراء الدور والأرضين - المساقاة - الجوائح - الشركة - القراض - الأقضية - القضاء - الشهادات -

الدعوى- المديان- التفليس- المأذون له في التجارة- الكفالة والحمالة- الحوالة- الرهن- الغصب- الاستحقاق- الشفعة- القسمة- الوصايا- الهبات- الحبس- الصدقة- الوديعة- اللقطة والضوال والآبق- حريم الآبار- الحدود في الزنا والقذف والأشربة- الرجم- الأشربة- السرقة- المحاريين- الجراحات- الديات.

ويُتضح لنا جيدا القيمة العلمية لمدونة الإمام مالك ولعل هذا الذي يفسر كثرة الاستشهاد بها وتوظيفها في الإجابة عن النوازل، حيث تضم سبعين بابا شملت معظم قضايا الفقه، وبالعودة إلى كتاب الدرر، فإننا أحصينا ثلاث وسبعين استشهادا به من ذلك استشهاد ابن مرزوق بكتاب الطهارة من المدونة في نازلته المطولة حول جواز الكتابة على كاغد الروم فيقول في إحدى فصول إجابته "فمنها قوله في كتاب الطهارة من المدونة " قال مالك: ولا يتوضأ بسؤر النصراني ولا بما أدخل يده فيه³⁷.

- **النوادر والزيادات:** لابن أبي زيد القيرواني وهو أيضا موسوعة فقهية شملت كل الأبواب الفقهية وقد اعتمد في تأليفها على مجموعة من أمهات الفقه المالكي حيث يقول في مقدمة كتابه " وذكرت ما كثر من الكتب مع ما قل من الحرص والرغبة وضعف من الطلب والعناية والحاجة إلى ما افترق في كثرة الكتب من شرح وتفسير"³⁸.

- ومن بين مصادره التي اعتمدها في تأليفه نذكر: الموازية لمحمد بن إبراهيم الموّاز والعتبية والواضحة والمجموعة لابن عبدوس، وكتب محمد بن سحنون³⁹.

- **صحيح البخاري:** وهو كتاب يشمل حديث النبي صلى الله عليه وسلم وعنوانه الكامل هو "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله

عليه وسلّم وسننه وأيامه" ويحتل أهمية كبرى ذلك أنه يعد أصح كتب الحديث وأكثرها استخداما حيث أحصينا حضوره واحد وثلاثين مرة في أجوبة الفقهاء.

- **جامع الأمهات:** لابن الحاجب⁴⁰، وهو كتاب في الفقه المالكي ويكتسى أهمية كبيرة كونه احتوى على كم كبير من أقوال المذهب المالكي، وكثرة مسائله الفقهية في مختلف أبواب الفقه المالكي وثناء مصطلحاته⁴¹ واحتل المرتبة الثالثة في حضوره في الدرر المكنونة حيث استشهد به ثلاثين مرة في نوازل مختلفة من ذلك نازلة سئل فيها عن قول ابن الحاجب "والجاري كالكثير إذا كان المجموع كثيرا والجارية لا انفكاك له⁴²، كما كان هذا الكتاب يدرس للطلبة حيث وردت نازلة جاء فيها " وقع لشيخنا المذكور⁴³ في مجلس الدرس حين قرأنا عليه قول ابن الحاجب"⁴⁴.

- **صحيح مسلم:** لمؤلفه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، يحتل كتابه المرتبة الثانية بعد صحيح البخاري من حيث صدق الأحاديث التي أوردها، وقد احتل المرتبة الخامسة من حيث الاستشهاد به، فقد ذكر تسع وعشرين مرة.

- **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة:** لابن رشد وهو من أمهات كتب الفقه المالكي دام في تأليفه اثنتا عشر سنة شرح فيه كتاب المستخرجة لمحمد العتبي، ولقيمة كتاب البيان والتحصيل أنه أغنى الدارسين عن

كتاب المستخرجة فانصب الاهتمام به فقط⁴⁵، حيث تناول فيه مسائل مستخرجة الأندلسيين ومدونة القرويين⁴⁶. استشهد به ثلاث وعشرين مرة في كتاب الدرر.

- **المختصر الفقهي**: لمؤلفه ابن عرفة الورغمي التونسي المتوفى سنة 803هـ، من بين أهم المؤلفات الفقهية في المذهب المالكي نظرا لاختصاره المبسط لمجموع القواعد وأقوال المالكية، بدأ تأليفه سنة 772هـ وأتمه سنة 786هـ، اعتمد في تأليفه على مدونة الإمام مالك ومؤلفات ابن الحاجب وابن عبد السلام⁴⁷.

وقد نحا ابن عرفة في كتابه منهج الاختصار، حيث يقول في المقدمة " فهذا مختصر في الفقه المالكي قصدت فيه جمع ما يحصل بهدي الله تحصيله، ذكر مسائل المذهب نصا وقياسا معزوة أقواله لقائلها أو ناقلها إن جهل فلا إجمال ولا التباس، وتعريف ماهيات الحقائق الفقهية الكلية لما عرض من النقل والتخصيص واعتبار الحقائق الجعلية " ⁴⁸، حيث قام بجمع أقوال علماء المذهب المالكي وإتباع الأمانة العلمية وذلك بعزو الأقوال لأصحابها أو لناقليها وإيراد الأدلة على المسألة الفقهية الواحدة والاعتماد على المدونة في ترجيح قول على آخر⁴⁹.

كما اعتمد على المختصر الفقهي لابن عرفة في كتاب الدرر المكنونة واحدا وعشرين مرة ما يبين أهميته بالنسبة لعلماء المغرب الأوسط من ذلك استشهد ابن عقاب به في إجابته عن نازلة حيث أورد في إحدى أجوبته " ابن عرفة فإنه قال: وقول ابن عبد السلام في تعبير ابن الحاجب عن الثاني يتوضأ ويصلي حتى تفرغ " ⁵⁰.

- **الموطأ:** وهو كتاب خاص بالحديث النبوي الشريف، قام بتأليفه الإمام مالك، اشتمل على واحد وستين بابا، حيث استشهد به ثلاث عشر مرة في كتاب الدرر المكنونة، ويأتي هذا التراجع مقارنة بصحيح البخاري ومسلم نظرا لأنها أكثر تدقيقا وتمحيصا في قبول الحديث كما أنها كانا بعده فكتاب الإمام مالك كان من أولى محاولات جمع الحديث؛ غير أن هذا لا ينقص من أهميته بل بقي مستعملا في المغرب الأوسط.

- **شرح التلقين:** لأبي عبد الله المازري، وهو عبارة عن شرح لكتاب التلقين لصاحبه عبد الوهاب بن نصر البغدادي.

أما عن منهجه: فقد قسّم المازري كتابه إلى أقسام متفاوتة الحجم، يتخلل كل قسم مجموعة من الأسئلة.

كما قام بالتركيز على تعليقات حول المتن والتوسع فيها، بالإضافة إلى التوسع في الإجابة عن الأسئلة التي طرحها في كل باب بالترتيب. وكذا التوسع في شرح الأحكام حيث شرح قول واحد في أربعين صفحة.⁵¹

وكان لا يتقيد بآراء المذهب المالكي خلال عرضه لقضية ما، وإنما يعرض آراء المذاهب الأخرى، ويورد كل قول بدليله الفقهي.⁵²

وقد ذكر شرح التلقين للمازري عشر مرات في الدرر المكنونة، ما يبين حضوره في الحركة العلمية كمؤلف يعتمد عليه في برامج التدريس، حيث استشهد به ابن مرزوق في إجابته عن نازلة حيث قال: "وقال المازري في باب التيمم"⁵³.

- **كتب علماء المغرب الأوسط:** رصدنا كتابين، وهما:

- **تكملة المشدالي على تعليقة الوانوشي:** وهو تعليق محمد بن أبي القاسم المشدالي على تعليقة الوانوشي، ويُعد من بين أهم الكتب الفقهية، حيث نهج فيها المشدالي منهجا جمع بين الشروح اللغوية ومعالجة الإشكاليات الفقهية. قال عنه التنبكتي " وأما تأليفه فممنها: تكملة حاشية أبي مهدي عيسى الوانوشي على المدونة في غاية الحسن والتحقيق تدل على إمامته في العلوم"⁵⁴.

والتي رصدناها في كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، حيث لم تذكر إلا مرة أو مرتين، ويتدئ المخطوط بباب الطهارة، حيث يقول: " وهي جزئية وخبئية والأولى مائة وغير مائة والأولى صغرى وكبرى والصغرى غسل ومسح وغير المائة استجماريه "⁵⁵.

استشهد بهذا المخطوط خمس مرات في كتاب الدرر المكنونة، من ذلك استشهاد أحمد بن زاغ به في إحدى إجاباته⁵⁶.

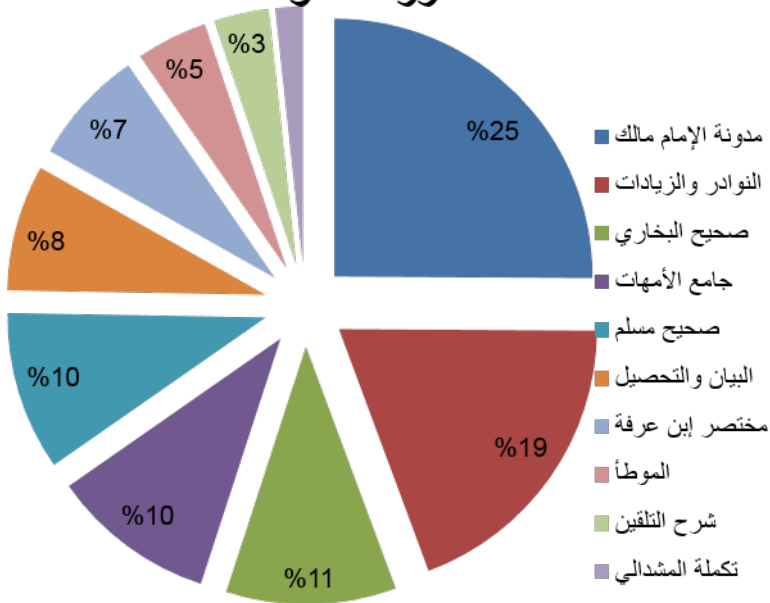
- **مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول:** لأبي عبد الله الشريف التلمساني، وهو كتاب في أصول الفقه، اعتمد في تأليفه على مجموعة من المصادر، مثل الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم الظاهري، والمنهاج في ترتيب الحجاج، والمعونة في الجدل⁵⁷.

كما انتشرت بعض الكتب التي لم يكن لها ذلك الأثر الكبير على الحركة العلمية، ونوردها في الجدول الآتي:

المؤلف	الكتاب
الغزالي	الإحياء
أبي عمر الداني	الأحرف السبعة للقرآن
أبي المعالي	الإرشاد
فخر الدين الرازي	الأربعين
إبن عبد البر	الاستذكار
إبن نجيم	الأشباه والنظائر
الغزالي	الاقتصاد
الأبي	إكمال الإكمال
الباقلاني	الانتصار
إبن المنير	الانتصاف
أبي المعالي	البرهان
إبن جماعة	البيوع
اللخمي	التبصرة
إبن مالك	التسهيل
القرافي	الذخيرة
السهيلي	الروض الأنف
ابن عتاب	الطرق على المجموعة
القاضي عياض	الغنية
القرافي	القواعد
عز الدين بن عبد السلام	القواعد
شمس الدين السرخسي	المبسوط
ابن هشام	المغني
عضد الدين	المواقف
فرج الدين ابن الجوزي	المورد العذب

ابن حبيب	الواضحة
القاضي عبد الوهاب	التلقين
القاضي عبد الوهاب	المعونة
ابن المواز	الموازية
عبد الوهاب بن نصر البغدادي	الإشراف في مسائل الخلاف
محمد بن أصبغ الأزدي	الإنجاد في أبواب الجهاد
القراقي	البيان في تعليق الأيمان
ابن عطية	تفسير ابن عطية
الزمخشري	تفسير الزمخشري
التفتازاني	تلخيص المفتاح
ابن مالك	تسهيل المقاصد وتكميل الفوائد
الباجي	سنن الباجي
إبن بزيّة	شرح الأحكام الصغرى
القراقي	شرح المحصول
إبن بزيّة	شرح الإرشاد
أبي القاسم النيسابوري	شرح الإرشاد
المازري	شرح الإرشاد
القلانسي	شرح البرهان
أبي عبيد	غريب الحديث
إبن السني	كتاب إبن السني
الدارمي	مسند الدارمي
الديلمي	مسند الديلمي
الإمام أبو الربيع	مصباح الظلام

جدول يمثل نسبة الكتب المتداولة من خلال الدرر المكنونة



التعليق:

من خلال المعطيات المتوفرة لنا من خلال الرسم البياني، يتضح لنا جيدا أن معظم الكتب المتداولة في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني كانت كتباً مشرقية ومن المغرب الأدنى والأندلس، حيث احتلت مدونة الإمام مالك المرتبة الأولى بنسبة 25,04% يليه النوادر والزيادات بـ 19,24% مع ندرة وغياب واضح لكتب المغرب الأوسط، كما احتلت تكملة المشدالي مرتبة متأخرة بنسبة 1,71%، وهو ما يبين طغيان واضح وتبعية معرفية للمشرق وغياب مؤلفات لعلماء من المغرب الأوسط قادرة على صنع نسق معرفي وقاعدة ترتكز عليها معرفياً، ما وضعنا أمام مفارقة عجيبة، فحين نعود لكتب التراجم نرصد المئات من المؤلفات لعلماء المغرب، حيث تتجاوز مؤلفات الواحد منهم في بعض الحالات العشرة مؤلفات، غير أننا لم نجد لها متداولة في المناهج التعليمية بل حتى في النوازل. فهل هذا يعني أنها مؤلفات غير ذات قيمة لم تقدم أي جديد في مجال العلوم؟ أم أن هذه المؤلفات لم تتجاوز

الشروحات والتقايد والتعاليق وبالتالي هي مكررة فقط؟ وإذا كانت معظم الدراسات الحديثة تتفق على أن الحركة العلمية خلال العهد الزياني كانت متطورة، فأي مقياس اعتمدوا في تصنيفها كذلك؟ هل تكفي كتب التراجم والتاريخ العام التي عدت المؤلفات وأمطرت الفقهاء بوابل من الألقاب والمدح في الحكم بتطورها؟ وإذا كانت متطورة فعلا فهذا يعني أن إنتاج علماء المغرب الأوسط يجب أن يكون إبداعيا ويقارع مؤلفات المغرب الأدنى والأندلس والمشرق، وهو ما لم نلاحظه.

وعلى صعيد آخر، فإن العهد الزياني يصنف حضاريا ضمن ما سمّاه المفكر مالك بن نبي بإنسان ما بعد الموحدين، ذلك الإنسان الذي لجأ إلى صومعته واعتزل الحياة واقتصر على التقليد في كل جوانب الحياة، قد قُتل فيه كل تجديد وكل إبداع وجمد عقله عن كل إنتاج خارج عن المؤلف⁵⁸. فهل سنواصل تحييزنا ونحكم على هذه الفترة بالتطور والمبالغة في ذلك، وهي في حقيقة الأمر مسلمة تحتاج لإعادة النظر.

خاتمة

وحاصل القول، فإنه رغم تقييمنا لبعض مظاهر الحركة العلمية في المغرب الأوسط خلال العهد الزياني، فإن ذلك لا يعني أننا ألغينا تماما الانجازات العلمية الذي شهدها ذلك العهد، الذي وصل فيه عدة علماء إلى درجة الاجتهاد، مثل قاسم العقباني، وسعيد العقباني، والشريف التلمساني⁵⁹، وإنما هدفنا أن نضع الحركة العلمية في مكانها الصحيح، فلا نبالغ في وصف تطورها ولا نجحف في ذكر إسهاماتها. فقد تخرج في ذلك العهد العديد من العلماء الذين يشهد لهم ويشار إليهم بالبنان، لكن يجب أن نفرق بين أمرين:

- أن العالم الذي وصل لدرجة مرموقة من العلم؛ يعني أنه استوعب العلم الذي درسه ولا يعني بتاتا أنه سيبدع بإنتاج جديد.

- أن الألقاب الفخمة التي امتلأت بها كتب التراجم، لا تعني مطلقا التسليم والأخذ بها.

- أن المقاييس المعتمدة في الحكم على تطور الحركة العلمية في أي دولة وخلال أي عهد، يجب أن تكون حول القدرة على الإبداع في الإنتاج الفكري؛ فيفرق بين الاستيعاب مع التبعية الفكرية وبين الاستيعاب مع الإبداع الفكري، والثاني يمثل تطور، والأول يمثل عجز في الخروج عن المألوف.

هوامش البحث:

1. طاش كبرى زاده، مفتاح السعادة ومصباح السيادة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ج 2، ص 54.
2. صديق بن حسن القنوجي، أجد العلوم، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1978، ج 2، ص 172.
3. نفسه، ص 173.
4. المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، ج 2، تحقيق مختار حساني، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ص 779.
5. نفسه، ص 622.
6. نفسه، ص 532.
7. القلصادي، رحلة القلصادي، تح: محمد أبو الأحنف، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1978، ص 102.
8. الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تح: علي محمد معوض عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1997، ج 1، ص 117.
9. عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، ط 2، 1980، ص 75.
10. حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.س، ج 1، ص 635.
11. محمود الطّحان، تيسير مصطلح الحديث، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ط 11، 2010، ص 17.
12. ابن خلدون، المقدمة، ص 478-479.
13. حاجي خليفة، المرجع السابق، ص 635.
14. المازوني، المصدر السابق، ج 1، ص 447.
15. نفسه، ص 462.
16. -نفسه، ص 507.
17. -المازوني، المصدر السابق، ج 1، ص 509.
18. قموح فريد، تحقيق نوازل الجهاد والأيمان والنذور من كتاب الدرر المكنونة في نوازل مازونة، لأبي يحيى المازوني، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الوسيط، تخصص علم المخطوط العربي، إشراف إبراهيم بكير بحاز، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 2010/2011، ص 168.
19. نفسه، ص 174.
20. علي بن الحبيب ديدي، مذكرة في أصول الفقه المالكي، دار العوادي، الدار البيضاء، 2010، ص 10.
21. علي بن الحبيب ديدي، المرجع السابق، ص 10.
22. المازوني، المصدر السابق، ج 1، ص 303.

23. المازوني، المصدر السابق، ج3، ص ص89-90.
24. نفسه، ج4، ص18.
25. نفسه، ص28.
26. نفسه، ص107.
27. نفسه، ص181.
28. نفسه، ص180.
29. عوض عبد الكريم الذنبيات، المختار من تاريخ العلوم عند العرب، كنوز المعرفة، الأردن، 2008، ص 150.
30. حاتم صالح الضامن، علم اللغة، مطبعة التعليم العالي، بغداد، 1989، ص30.
31. المازوني، المصدر السابق، ج1، ص281.
32. المازوني، المصدر السابق، ج1، ص203.
33. نفسه، ص205.
34. نفسه، ص437.
35. عوض عبد الكريم الذنبيات، المرجع السابق، ص155.
36. المازوني، نفسه، ج2، ص571.
37. المازوني، المصدر السابق، ج2، ص574.
38. المازوني، المصدر السابق، ج1، ص304.
39. ابن أبي زيد القيرواني، التوارد والزيادات، فه: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، 1999، ج1، ص9.
40. نفسه، ص10.
41. أبو عمرو جمال الدين بن عمر، بن أبي بكر يونس المصري ثم الدمشقي ثم الإسكندري، ولد سنة 570 أو 571 هـ وتوفي سنة 646 هـ من أعماله إلى جانب جامع الأمهات نذكر منتهى السؤل والأمل في علمي الأصول والجدل، الكافية في النحو، الشافية في التصريف وغيرها من المؤلفات. ابن الحاجب، جامع الأمهات، تح: أبو عبد الرحمن الأخضر الأخضر، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1998، ص ص7-9.
42. نفسه، ص ص9-10.
43. المازوني، المصدر السابق، ج1، ص277.
44. يقصد به أبو الفضل العقباني.
45. نفسه، ص263.
46. ابن رشد، البيان والتحصيل، تح: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1988، ج1 ص5.

47. نفسه، ص 10.
48. ابن عرفة، المختصر الفقهي، تح: حافظ عبد الرحمن محمد خير، مؤسسة خلف أحمد الجيتور، الإمارات العربية المتحدة، 2014، ج 1، ص 29.
49. ابن عرفة، نفسه، ص 61.
50. نفسه، ص ص 41-42.
51. المازوني، المصدر السابق، ج 1، ص 274.
52. المازري، شرح التلقين، تح: محمد مختار السلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، 1997، ج 1، ص 81.
53. المازري، المصدر السابق، ص 82.
54. المازوني، المصدر السابق، ج 1، ص 471.
55. التنبكي، نيل الابتهاج، ص 539.
56. المشذالي، تكملة المشذالي على تعليقة الوانوشي، موقع ملتقى أهل الحديث، ورقة 2.
57. المازوني، المصدر السابق، ج 1، ص 413.
58. أبي عبد الله الشريف التلمساني، مفتاح الوصول في بناء الفروع على الأصول، تح: محمد علي فركوس، مؤسسة الريان، الجزائر، ط 1، 1998، ص 241.
59. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ج 1، دار الوعي، الجزائر، 2012، ج 1، ص ص 36-37.
60. أبو القاسم سعد الله، حبر على ورق، عالم المعرفة، الجزائر، 2011، ص ص 20-21.